

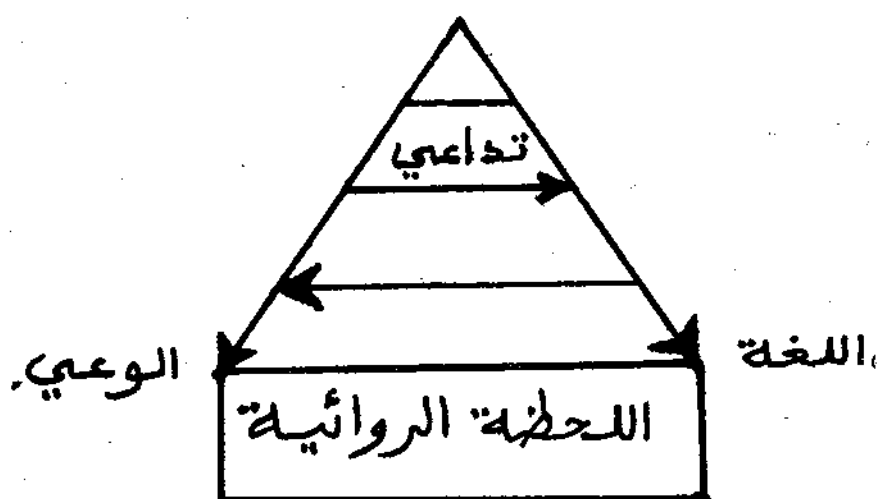
أبراج المدينة بين تداعي اللغة وتداعي الوعي

نجيب العوفي

في امكان رواية (أبراج المدينة) لمحمد عز الدين التازي ، ومن خلال ذات السقف الروائي الذي أظلمها ، لغة ونسجها ورؤية ، أن تطلق العنان لسطورها ، فتتجاوز الصفحة الرابعة بعد المائة التي توقفت عندها ، وتستأنف الحديث من جديد ، نافثة عبر الصفحات مزيدا من المداد المر ، منحرفة مع تيار الوعي والاشجان والكوابيس الذي لا ينتهي ، دون أن تتجاوز الحقل الدلالي والايحائي الذي أسسته وتموضعت فيه . هذا افتراض أول . وفي الامكان أن تخضع الرواية لعملية اختزال ، فيجرد جذعها من الفروع والافنان الذي التفت حوله ، وتلم أطراف المساحة الروائية فيها لتتصطف وتقلص في حدود اللوحة أو القصة القصيرة ، دون أن تتخلف عن الحقل الدلالي والايحائي الذي أسسته وتموضعت فيه . هذا افتراض ثان . وفي الامكان أن نستأنف عماية الاختزال والتكثيف الى الدرجة القصوى ، فنجرد النص من النص ، نفتزعه من مدار كليته لنقطره ونصهره في إحدى جزئياته الدالة التي تشف عن كلية النص ، عن هاجس الرواية وسرها . نفتح الرواية على هذه الفقرة مثلا ، ونقرأ : (ارض تنوشها البنادق وطيورها الباكية لا تريد أن تهاجر . كان يستطيع أن يحلم حلما يتمدد وينداح من الواقع ، ينطلق مما هو حاصل نحو ما ينبغي أن يكون ، هذا لا ينفع . المهم هو الوسيلة ليصبح هذا الحلم واقعا . يرى في الشوارع انهارا راكدة من العطانة وانتشار الرائحة ، مدى فسيحا مشبوها تتوزع عليه اصوات لاغطة في صمت . تنتشر الرائحة في الحوانيت والبيوت والمقاهي وفي كل طبقات الجو . ينظر الناس بعضهم الى بعض ، يعملون أصابعهم في آذنههم دون أن يقوى أحدهم على السؤال . كان الغضب المشتعل يتحول الى جزر نارية صغيرة لا تلنقي أو تمتد . ماذا يحدث لو تشابكت جزر النار وتوحدت في مدى واحد ؟ . ص 62 - 63 .) . في امكان هذه الفقرة أن تكون ترجمة مصغرة للحديث الروائي في (أبراج المدينة) ، صدى مركزا للحن العام الذي تعزفه ، ما دامت السبيلة التراكمية لنظائر وأشياء هذه الفقرة ، كبنيات متداخلة ، هي ما يكون في التحليل النهائي

جماع النص الروائي وبنيتة العامة . الشيء الذي يجعل النواة الدلالية الام قائمة في كل فقرة وكل لوحة ، تلتقط وتدرك منها مباشرة في شكل متواليات دلالية متكررة ، مستقلة بنفسها وملتحمة ببعضها في آن ، قبل ان تلتقط وتدرك من النص ككل بطريقة تركيبية واستنتاجية ، ومن ثم يغزو مجال الكتابة في (أبراج المدينة) ازجا ولولبيا تتناسخ فيه المداليل بتناسخ الدوال فيما يشبه الاواني المستطرقة . فيكفي القاري ان يفتح الرواية اعتباطا ويقرأ صفحة أو صفحتين ، ليفض ختم الرواية ويكتشف سرها ، بعد فض ختم اللعبة اللغوية واكتشاف سرها . وهذا افتراض ثالث .

هذه الافتراضات الثلاث ، تستطيع ان تساعدنا على تحسس طبيعة الآلية الروائية في (أبراج المدينة) ، تستطيع ان تقربنا من أهم خاصيتين في الرواية ، وهما تداعي اللغة وتداعي الوعي . وبين الخاصيتين حبل سري يجعل من لحظة التداعي ، وهي لحظة النص الروائي ككل ولحمته النفسية - الفنية ، زاوية مشتركة للغة والوعي ، تنبثق منها الحركتان وتظل كل منهما تعكس الاخرى عبر حركة ثالثة هي حركة التبادل والحلولة ، فيصبح الوعي تدفقا لغويا وتصبح اللغة تدفقا وعييا :



(سيكون منظو وتناف من كل شيء . نبش في القبور . ساحات مزروعة بالشظايا والاشلاء ، سر وجهر . وراء وخلف ، سراديب . رهان على الحياة والموت . التصور والواقع . العاصفة المسبوقة برياح التوقع . تسلق الصخور الجارحة المسنونة . الحوار والحزن . الكابوس . الغموض . الرؤية ، توالد النار من النار . ص . 94) .

ولهذا ، لا تغزو اللغة في الرواية (شكلا) صرفا ، كما لا يفغزو الوعي (مضمونا صرفا) . اذ يمكن تحسس نسق الوعي ضمن نسق اللغة ذاتها (طبيعة السرد - نحت الجمل والتراكيب - لون الافعال والكلمات - خصائص الصور والمجازات - لعبة الضمائر - ازمدة الافعال ..) : كما يمكن تحسس نسق اللغة ضمن نسق الوعي ذاته (توتر الوعي وتوازنه - اندفاعه ونكوصه - شفافيته وضبابيته - تاراجحه بين الصحو والغيبوبة ، بين امتلاك اللحظة واقتادها - خصائص تأملاته ورؤاه ..) وهكذا تتخطى اللغة مستواها الوظيفي والبياني المباشر الى مستوى دلالي وحدي غير مباشر ، أي تصبح لغة داخل اللغة . وبالتالي يطمح النص الروائي الى أن يكون نصا داخل النص . وتصبح الطريقة التي يقال بها الشيء ذات أهمية حساسة في هذا الصدد ، تفوق وتضاهي الأهمية المعطاة للمعنى المستمد مباشرة من اللغة . وقد اجتهد النازي في (ابراج المدينة) ليكسر جرائيته للغة ويشق عصا الطاعة على أعرافها ونواميسها ، وليخلق من ثم لغة بكرة ومنحرفة مفسولة مما علق بها من كلس وآثار ، قابلة لان تمتص الشحنات النفسية والفكرية التي تحبل بها اللحظة الروائية المتوهجة ، قابلة لان تكون في مستوى الازمة العضوض التي تنتشب مخالباها في تلايف الوعي والواقع . وكان طبيعيا لهذا الاجتهاد الخاص مع اللغة ، ان يفضي الى اجتهاد آخر خاص مع التقليد الروائي نفسه . كان طبيعيا أن يفضي الى شق عصا الطاعة ثانية مع المصطلح الروائي . وهنا تتكرر التجربة الروائية المتمردة لاحمد المديني في (زمن بين الولادة والحام) مرة أخرى . لكن على نحو أقل تطرفا وشططا . لقد حق الاثنان ، النازي والمديني ، الاسفين في المعمار الروائي وحطما نظام النص واعادا توليفه على نحو خاص . وكانت النتيجة تداخلا غير مشروط بين الرواية والشعر ، زواجا شرعيا بينهما حينما وغير شرعي حينما آخر . واذا كان المديني في روايته قد تحرر من كل رقابة فنية ، فراح على جواد الشعر دون تحفظ وأطلق له الحبل على الغارب ليتخطى جميع الحدود والتقاليد الروائية ، فان النازي قد حافظ على نصيب من الرقابة الفنية وتعامل مع الرواية والشعر كفرس رهان . ففي الوقت الذي كانت فيه اللغة الشعرية تنهمر على فصول الرواية وتمارس طقوسها الخاصة بحرية ، كان الهاجس الروائي يمارس طقوسه الخاصة والخفية بفوره ، ويحاول شق عباب الشعر والخروج سالما أو شبه سالم منه ، سواء بواسطة الحفاظ على بعض ظلال الزمان والمكان والاشخاص ، أو بواسطة التحكم في منطق السرد وتطعيمه ببعض المواقف الحوارية ، أو بواسطة خلق حركة مادية ونسبية أحيانا موازية أو مكملة لحركة اللغة والوعي . لكن رغم هذه الثيمات والعناصر التي حاول الهاجس الروائي ان يسترد بها رشد الرواية ويحافظ بإسالتها على بعدها الانطولوجي ، تظل اللغة الشعرية هي روح الرواية . تظل فضا حريريا مغريا استسلم له

التي تليها عن طواعية وسبق إصرار ، أملا من وراء ذلك أن يصطاد ثلاثة عصفير
بـحجر واحد :

أ - أن يخلق لغة جديدة من رفات لغة قديمة . أن يسك عملة خاصة
مخالفة للعملات المتداولة والمبتذلة . (قطيعة لغوية) .

ب - أن يحطم الرواية داخل الرواية ، ويخلق رواية مضادة مشرعة
لنواذ لكل الرياح . (قطيعة رواائية) .

ج - أن يجعل الحديث الروائي في حد ذاته ، هوقفا وقولا ايديولوجيا .
حديثا مباشرا للذاكرة والوعي يعكس توترهما ومعانيهما من
أجل التجاوز وبحتمهما للمضني عن الحقيقة . (قطيعة ايديولوجية) .

ومن ثم يغزو منطق التداعي في الرواية ، مجالا خصبا لممارسة هذه
المواقف القطيعية التي يمكن ادراجها واختزلها في موقف عام هو موقف
القطيعة الثورية . فعن طريق هذا التداعي تحاول اللغة أن تتجاوز ذاتها وتتحرر
من أطوارها ، مستمدة العون من عنفوان الوعي وتوجهه ، فتعبر عن شجنها
الخاص في نفس اللحظة التي تعبر فيها عن شجن الوعي . وعن طريق هذا
التداعي أيضا يتكلم الوعي (باللغة) ويكشف بواسطتها عن مكنوناته
وأغواره ، ويمارس (في اللغة) نشاطه وذاته ، يكمل فيها دوره ، ويحقق فيها
بعض أحلامه الايديولوجية . ولما كان الوعي في الرواية مأزوما ومهيبض الجناح ،
يسهم أرق الثورة والتغيير وتشنجه الهموم والاحباطات ، ممزقا بين ما هو
كائن وما ينبغي أن يكون (يحلم بجماعات وأفواج تجسد الغضب في الشوارع ،
وتفسير نحو ميعاد اللحظة الحاسمة ، تتجاوز أبراج الحجر وقضبان الحديد
أو جراحها الذاتية ، تدق الأرض بالخطر وتعلن العصيان . هل يكفي أن
يحلم ؟ ص . 69) .

لما كان الوعي كذلك ، وكان واقع الحال غير واقع الحلم ، طرعا شبه
مسدودة ، وليلا انتظاريا ثقيلا ومشحونا لا يكاد يشف عن فلق (كان كل شيء
مختبئا تحت سطوح باردة مثقلة بالرماد ، غارقة في الصمت ، في انتظار أن
تهب عاصفة صيفية ، والفراغ واقف منتصب بثقله على رعشة العين وخفقة
القلب . ص - 34) .

فقد كان بدهيا أن يدور الوعي في درامة قاسية من المعاناة . كان بدهيا
أن ينكفي على ذاته كبركان يصطلي بحرائقه الداخلية ومخاضاته الشاقة
في انتظار اللحظة التي تنغذف فيها الحرائق والحمم الى الخارج ، لوضع حد
للمخاض الروتيني الشاق . أن وضعية الوعي هذه ، عبر الرواية ، تكثيف
وعصارة مرة لسنوات المحنة الطويلة التي أمسكت بخناق الجماهير المغربية
المسحوقة منذ الستينيات الى الآن . تكثيف وعصارة مرة للتجارب النصالية

المجهضة وللانقفاصات العمالية والطلابية المتكررة التي أوشكت أن تشعل الشارع المغربي وتهز سكون الأطلس والريف ، فنهد (القراصنة القدامى - الجدد يبعثون الرعب في العيون والصمت في الأفواه ويرمون شباكهم الطويلة العريضة على النوافذ والأسوار والبنائيات وشوارع المدينة ، يطلقون أرصادهم في كل ذرة وخلية ، ويزرعون الشوك في الحلق والشفاه يكفونها عن الصراخ الهائج . ص. 18) .

وتتأفت العين بحثا عن يستطيعون اسناد السقف الثوري والحيلولة بينه وبين الانهيار ، تتلفت بحثا عن يجمعون الشظايا المتناثرة ليصنعوا منها حريقا ، يأمرون صيحات الغضبة المتمخضة ليجعلوا منها اعصارا ، فماذا ترى ؟ ! (ترى العين الساحات مسفوحة منكسة الاركان ، غارقة في التراجع وسموم الظل ، والهمس الشائك الذي يجرح الكلمات المعلقة المقصوفة الذنب والاطراف ؟ تبقى الساحات شاهدا صغيرا على النهوض المثقل بالثقوب الرصاصية .. ص. 42) .

تجاه هذا النهوض العائر ، وهذا الانتكاس المخيم على الساحات ، وفي ظل غياب القدرة على الفعل الحقيقي ، يشتد الايقاع الداخلي للوعي في الرواية ، تستفحل أزمتها ومعاناته ، ويطفح به الكيل في شكل تداعيات وسورات كادوسية تلتطم وتدور في حلقة مفرغة لا مخرج لها . وانطلاقا من دورة الوعي على نفسه ، تدور اللغة على نفسها ، تستنزف معجمها ، راسمة عبر الرواية دوائر مختلفة حجما وشكلا ومؤلفة دلالة ومضمونا . ان قوام الاسلوب عند النازي هو التنوع التشكيلي في اطار وحدة المعنى واستمراره . لقد قدم لنا فعلا نصا أدبيا يصدق عليه تعريف جاكوبسن (بكونه خطابا تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام .) . بيد ان الوظيفة الشعرية في (أبراج المدينة) بالمعنى الدقيق للمصطلح ، لم تكن عنصرا حاسما ونسيجا بنيويا عميقا في الرواية ، لم تكن رؤيا فكرية أو تأملية نابعة من صلب العمل الروائي ومكونة له . لقد تحددت هذه الوظيفة في اطار رؤيا تشكيلية وبلاغية تعيد توليف وتوظيف أركان البيان الأربعة ، التشبيه والمجاز والاستعارة والكنائية ، وفق منطق تحرري خاص يبعد ويعتم المسافة أحيانا بين الاصل والصورة ، بين الماحول والادل ، ويقيم نظاما خاصا للجمل والمقاطع والصور . ان الرواية تتحدث لغة شعرية ولا تؤسس فضاء شعريا . تستخدم الرموز والاشارات على مستوى فني وتعبيري وليس على مستوى ذهني وتأمل . أي انها تخلق مستوى ثانيا للتعبير وتكون طبقة لغوية جديدة ماساءة وإيحائية لغاية تعويم حقل المدليل وترك هامش وهمي بينه وبين الادراك . فاللغة الشعرية ، إذن ، تتم داخل اللعبة اللغوية وبدافع منها ، أكثر مما تتم داخل الوعي الفني وبدافع من هاجس شعري حقيقي . وكنتيجة

لهيمنة الهاجس اللغوي والرغبة في تأسيس لغة روائية خاصة ، عبر أسلوب
التداعي الحر ، سقط الحديث الروائي في التكرار والاطناب ، واحتشدت
المقاطع والصور والجمال ينسخ بعضها بعضا وتتبادل المواقع داخل الحديث
الشيء الذي يجعل الرواية ، كما سبق القول في مقدمة هذه السطور ، قابلة
لأن تمط وقابلة لأن تختزل دون أن تخسر حقلها الدلالي :

أ - المدينة فوق الرأس ، في بؤرة الأعصاب ، تحلم بالخروج من غربتها
الوحشية واستعادتها للكينونة الأولى . لا وقت للبراءة المبكر في هذا
الزمن الكاذب الذي يفصح بالمكر والخديعة . (ص . 3) .

ب - كان الشارع وجها آخر للمدينة ، ينزف قطرات دموية على مسافات
غير متباعدة . والوجوه تضطرب بالحركة نحو المجهول ، ملثمة بالرب
والقهر وجوه رجال مخمورين بالدعشة والصحو ، (ص . 13) .

ج - المدينة مسكونة بالهوس والشياطين ، تنفض غبار الاعوام المريضة
وتتزعزع من رقعتها الازلية . تغمص عينا وتفتح أخرى ، ترى الاسوار
الموحشة والدماليز الخراب والخطوات المشرعة على أبواب الريح .
(ص . 25) .

د - جسد هائم في الريح والطرق والمنافي . يخرج وحيدا ضد التيار وضد
كل رغبات النفس . يجد الجسد الهائم متجاوزا نحو الجهات الست ،
يقرع الجبهة أسفاس الطريق ، لا يلقى سوى فقاقيع الأشياء ولون
الخابور ، لون الموت المحقق من مخاوف القسوة والرب . (ص . 63) .

وفي بعض الأحيان يجمد الترمومتر الدلالي للغة ، فتظل سديما من
الكلمات لا يقول شيئا . لكن لا بد من الإشارة الى أن سيولة اللغة هذه
وسديميتها أحيانا جزء من البناء الروائي وطقس من طقوس الرواية . انهما
انعكاس لسيولة وسديمية الذاكرة الروائية وتجسيد لحركة الوعي الدائرية
المتوترة . ان الزمن اللغوي ظل للزمن النفسي . والزمن النفسي في الرواية ،
وهو مضختها الاساسية ، مشحون ومتفتت ، ركام خواطر ومشاعر ، وسلسلة
صراعات وكوابيس تفيض عن رؤيا باطنية جياشة تطفئ على الرؤية الخارجية
وتلغى ابعادها . انها محاولة أخرى لتشريح أزمة الوعي للمغربي على الصعيد
الروائي ، هذه التي قام بها التازي في (أبراج المعينة) . محاولة تشريحية
دقيقة استطاعت فعلا أن تتحكم في مبضع التحليل . ولم يحل الجو النفسي
المتوتر الذي ساد الرواية دون الوصول الى الجذر الحقيقي للأزمة وتعريفه
وكشفه . بل ان عري وانكشاف هذا الجذر في وعي بطل الرواية كانا السبب
المباشر لمعاناته وشقائه الفكري ، كانا عاملا مضاعفا للأزمة التي اتخذت
منحى خاصا في الرواية وتحددت في (وعي أزمة الوعي) .
تبتدي الرواية من أعلى درجات الغليان ، من أهم مواقفها الساخنة

والتراجيدية : موقف انهيار البطل وسقوطه ومحاولته الفاشلة للانتحار .
وتأتي الفصول اللاحقة لتقرر وتفسر هذا الموقف وتستبطن جذوره وأغواره .
وتنتهي الرواية باعتقاله ، ووضع حد لمعاناته وحياته (يرتفع الماء حتى يغمر
كل الجسد ويصل الى مستوى الانف . قبل ان يغيب عني تماما ، يستدير
نحوي ويقول لي : انا ذاهب . أما انت فلم تكن لتتظنر حتى يأتي ذلك
الصباح الباكر ، فيصلوا صلاة الصبح ويجعلوا قتلك مشروعا . ص . 104) .
وبين لحظة الانتحار ولحظة الاعتقال ، يرتفع السؤال :

هل كانت أزمة - البطل - في الرواية صحية أم كانت مرضية ، بعد ان
ارتفع عنه اللبس ووصل الى مستوى الوعي بازمته ؟ ! بصيغة أخرى ، الى
أي حد أقتنعنا الرواية بالموقف النضالي للوعي فيها ؟ !
أمامنا مستويان للإجابة . المستوى الأول يعتمد على الأطروحات
والقناعات الايديولوجية التي بلورتها الرواية :

أ - التنظيم ليس مجرد احتراق وتجمعات ، أو تقتل من أجل معارضة
كلامية . هذا للتاريخ . التنظيم أخذ بالمبادرة . (ص . 31)

ب - مقارعة حتى النهاية . سبق أصرار رغم الردع والارصاد . تناسل
الأفكار بالدم ، وتجاوز للذوات الصغيرة المريضة بالكساح
والتكلس من هنا يبدأ الحاضر المتجدد ويولد الإنسان (ص . 33) .
ج - لا تنفس . الفقراء في كل مكان .

- متى يتحرك مؤشرهم نحو أقصى اليسار ؟

- الوسائل واضحة : التنظيم والتأطير . (ص . 61) .

د - كيف نهد الجبل ؟

- بالاستمرار في المجابهة .

- هل نحن وحدنا من يجابه ؟

- ماذا تقصد ؟

- غياب الفقراء أصحاب المصلحة الحقيقية .

- نحن نبأ . (ص . 77 - 78) .

في حدود هذه القناعات الواضحة ، تبدو أزمة - البطل - في الرواية
صحية وإيجابية . إنها كما قلت ، أزمة وعي الأزمة أكثر منها أزمة وعي ،
أي أن الخلل المكون للأزمة ليس قائما في داخل الوعي بقدر ما هو قائم خارجه ،
في الوعي المضاد . وبالتالي يغدو الموقف النضالي لوعي - البطل - حاصلا
بالقوة (أفكاره ورؤاه) وحاصلا بالفعل (أنشطته واعتقاله) .

المستوى الثاني للإجابة ، يعتمد على الفضاء النفسي العام للرواية
بأقصى درجات الكآبة والسويداء الى مدى السقوط في شرك اليأس والانهيار
وطبيعة المعاناة لدى - البطل - ، تلك المعاناة التي تختلط فيها النورية

(محاولة الانتحار) ، والتي استغرق في لجتها استغرقا طهرانيا وفردانيا ،
ناظرا الى الواقع بحق ورثاء ، وكأنه صالح في ثمود :

أ - أنا المشتعل عذابا وحمى أجهر بالضميم والقمع والكبح واستغلال
الغرق أقول لا ، وأصارع ، أوقظ التاريخ من غفوته وأنجر
البداية . (ص . 20)

ب - ينفض القراب عن دمي من القش موصولة برقاب من المطاط .
فجأة يكتشف فيها إناسا رأهم في الشوارع والأماكن المأهولة .
كيف صاروا مسخا مشلولوا لا ينحرك . (ص . 64)

لا شك في أن لهذه المعاناة ما يبررها تاريخيا . إذ تظل في العمق شاهدا
على قلق المرحلة . صررة مكثفة للمخاض المعقد والشاق ضمن الواقع
الاجتماعي . لكن رغم ذلك أو بسبب ذلك ، تبقى وظيفة الفن هي محاولة
احتواء الواقع وضبط تناقضاته وآلياته بواسطة امتلاك معرفة عميقة
وراشدة به .

من خلال هذا المستوى الثاني للإجابة عن السؤال السابق ، يبدو
الموقف النضالي للوعي في (أبراج المدينة) موقفا شاعريا وباهتا ، وتبدو
أزمة - البطل - رخوة ومفتقرة لشروطها الصحية . وكان مفارقة ، الجمع بين
الهزيمة والبطولة ، بين الانتحار والنضال من جهة ، كما كان صعبا من جهة
ثانية ، أن نخرج من الرواية مقتنعين بلحظة الانتحار في البداية ولحظة
الاعتقال في النهاية .

وبين الوجه الإيجابي للآزمة والوجه السلبي لها ، يبقى بطل (أبراج
المدينة) أحد الرموز الهامة في الرواية المغربية ، يبقى معنا ثوريا نقيبا
وسليما ، حتى في حال عدم صلابته وتفولذه .

الكاتب الفلسطيني

تصدر عن الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

رئيس التحرير : ناجي علوش .
نائب رئيس التحرير : رشاد أبو شاور .

عنوان المجلة : الكاتب الفلسطيني
بيروت ، لبنان - ص . ب . 3075 .